مجلة المرابط

العدد : ١٨٣ الموافق في جمادى الأولى ١٤١٧ هجري ١٠ / ١٩٩٦ ميلادي

عنوان المقال : { عـلـى بـصـيـرة أنـا ومـن اتـبـعـنـي }	بقلم : د موفق الحكيم

يجب على الداعية إلى الله أن يكون بصيراً : علماً وفهماً وتطبيقاً لما يدعو إليه ، واعياً بظروف وأحوال وتغيرات المجتمع الذي يعيش فيه ، مدركاً ملماً بآداب وأحكام الدعوة الإسلامية وباقي الدعوات ، متجنباً العواطف المضطربة ، والانفعالات المتأججة ما أمكن.

إن الدعوة المثمرة والناجحة تقوم أساساً على فهم ومعرفة أمور الدعوة أولاً ، وعلى تطبيقها الصحيح في النفوس ثانياً ؛ قال تعالى : { **فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات والله يعلم متقلبكم ومثواكم** }[محمد:١٩] فقدم الله تعالى **العلم** على **العمل** ، فلا بد من العلم الصحيح لتطبيق العمل الصحيح. يقول صاحب التحرير والتنوير : « ومن اللطائف القرآنية أن أمر الله هنا بالعلم قبل الأمر بالعمل ». ولما سئل ابن عيينة - أحد سادة التابعين - عن فضل العلم؟ قال : ألم تسمعوا قول الله تعالى : { **فاعلم أنه لا إله إلا الله...** } وذكر الآية. وقد رجح الإمام البخاري رحمه الله وقدّم العلم على العمل في صحيحه استناداً إلى هذه الآية الكريمة.

نعم إن الدعوة إلى الله تتطلب الإلمام والعلم الكافي بأمور الدعوة والدين والممارسة والتطبيق العملي ، وهذا ما يتضمنه معنى الإيمان والعمل الصالح ، ولا بد من تجنب الجهل والحماسة الزائدة والانفعالات المريضة المفرطة في هذا المجال. يقول تعالى : { **قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين** } [يوسف : ١٠٨] لقد بين الله تعالى في هذه الآية العظيمة أن الدعوة إلى الله في كل زمان ومكان ، ابتداءاً من الرسول العظيم محمد ﷺ وحتى يرث الله الأرض ومن عليها ، يجب أن تقوم على **بصيرة** من المسلم الداعية . والبصيرة تعني العلم والمعرفة والوعي ، وهي أبعد ما تكون عن الجهل والانفعال والتواكل ورد الفعل.

إن داهية الدواهي التي قد يقع فيها بعض الدعاة أنهم ينطلقون في دعوتهم من مبدأ الحماس الديني ، والعاطفة الدينية التي لا يساندها العلم والعمل والوعي ، وإن الداعية الذي ينطلق في دعوته من منطلق العاطفة المقترنة بالجهل ، والحماس المشوب بالغفلة ، يَضُر من حيث يظن أنه ينفع ، ويهدم من حيث يظن أنه يبني ، ويَضل ويُضل من حيث يظن أنه قد اهتدى وهدى ورشد وأرشد ، وأمثال هؤلاء نُذكرهم بقوله تعالى : { **ولا تقف ما ليس لك به علمٌ إن السمعَ والبصر والفؤاد كلُ أولئك كان عنه مسؤولاً** } [الإسراء : ٣٦].

إن الدعوة التي تنطلق من العاطفة الدينية المشبوبة بنار الانفعالات ، وتتوقد جذوتها بنار رد الفعل والحماسات ، والتي لا تستند إلى علم ووعي ومعرفة ، قد أفسد الداعي فيها أكثر مما أصلح ، وأساء أكثر مما أحسن ، وهي نار تحرق صاحبها ، وتحرق دعوته بدون أن تنير الطريق وتوضح المعالم. يقول الدكتور محمد الصباغ في كُتيب تذكرة إلى الدعاة : « إن الدعوة إلى الله يجب أن تكون مبنية على أساس متين من العلم ولا يجوز أن تبقى العاطفة المضطربة هي الدعامة الوحيدة التي تقوم عليها ». وكذلك قال القدماء ونقول معهم أيضاً:

وكل من بغير علم يعملُ أعمالُه مردودةٌ لا تُقْبلُ

والأنكى من ذلك بل والأدهى أن المجتمع والقانون يحاسبان من يطبب الناس إذا لم يكن من أهل الطب والاختصاص ، ولم يحصل على الشهادات اللازمة. وهذا صحيح وملزم شرعاً وعرفاً ، ولكن أن يفتي في الدين من لم يُعرف عنه إلمام ومعرفة بعلوم الدين ، وأن يتصدى للفتوى والفقه من لا يعرف من أمور الدين شيئاً - اللهم إلا ما قد ورثه عادة وممارسة عن الآباء والأجداد - بل على العكس فبدلاً من أن يُمنع وينزل به العقاب الدنيوي ، قد يجد التشجيع والتأييد في كل عصر ومصر ، ومن كل حاكم وقصر ، فهذا العجب العجاب! ، ولكن أمثال هؤلاء وإن لم يلحق بهم العقاب الدنيوي فإن ما ينتظرهم يوم الحساب هو أمرّ العذاب وأشدّ العقاب. يقول الإمام العظيم ابن القيم في قوله تعالى : { **قل إنما حرمَ ربيَ الفواحشَ ما ظهر منها وما بطنَ والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزلْ به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون** }[الأعراف : ٣٣] يقول إن القول على الله بغير علم هو أعلى مراتب الإثم ، ويستوجب أشد العذاب وهو أشد عند الله من الشرك بالله بحد ذاته ، فمراتب الإثم والكفر درجات أشدها القول على الله بغير علم.

وقد قال العلماء أيضاً « لا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إلا من كان فقيهاً فيما يأمر به ، فقيهاً بما ينهى عنه ».

إن الذين يدعون إلى الله من غير بصيرة كافية ، ومعرفة وافية ، ومن غير أن يكونوا أهلاً لحمل هذه المرتبة العظيمة ، مرتبة الدعوة إلى الله { **ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله** } إن هؤلاء الناس بالإضافة إلى ما يلحقونه بالإسلام والمسلمين من ضرر وفساد ، فإنهم من جهة أخرى - شاؤوا أم أبوا ، عرفوا أم جهلوا - يُستغلون من قبل أعداء الإسلام والحاقدين عليه من ملحدين ومشككين ومضلين ، ويُستعملون رأس حربة في طعن الإسلام في مقاتله وأركانه ، إن هؤلاء الدعاة الجاهلين المفسدين ،

والذين يظنون أنفسهم أنهم حماة الإسلام ، هم أشد أعدائه وألد خصومه ، لأنهم يرتدون عباءة الإسلام ويخفون تحتها كل أنواع النتن والجهل والعفونة ، ولأنهم يظنون أنهم من خلال الشعارات الفارغة والممارسات السطحية أنهم يخدمون الإسلام ، وهم في الحقيقة يرمونه بأقوى السهام ويطعنونه بأشد الرماح.

هذا من جهة ومن جهة أخرى فإنه يجب على الداعية إذا أراد أن يتصدى لدعاوى المبطلين والمشككين والمنحرفين أن يكون على علم ومعرفة بمبادئهم ومدارسهم وآرائهم المختلفة. إنه لا يكفي أن تُظهر الجوانب النيرة والوجوه المشرقة البيضاء الناصعة للإسلام ، ولكن يجب عليك أيضاً أن تبين الجوانب المظلمة السوداء القاتمة للدعوات والمذاهب الوضعية ، وهذا لا يمكن أن يتم إلا إذا كنت على بصيرة وعلم ومعرفة بمذاهبهم المختلفة ، وما فيها من انحرافات وتضليلات وسلبيات. يقول تعالى : { **وكذلك نفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين** } [الأنعام : ٥٥].

فلا بد إذن من أهل العلم والاختصاص الذين ينافحون عن دعوة الإسلام ويظهرون ما فيها من وجوه الخير - والإسلام كله خير - ويكشفون الدعوات الباطلة وما فيها من شر - والباطل أصله شر - والضد يُظهر حسنَه الضدُّ ، وإنما تتميز الأشياء بأضدادها ، وقديماً قال عمر الفاروق ﷺ : « إنما تُنقض عرى الإسلام عروة عروة ، إذا نشأ في الإسلام من لم يعرف الجاهلية ». وقال الرسول ﷺ : « الناس معادن ، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا »[رواه البخاري] وإن التصدي لدعاوى وأباطيل المنحرفين والضالين من غير أهل العلم والاختصاص يمكن أن يكون له إحدى عاقبتين أحلاهما مرة.

١-أن يخفق الداعية في التصدي لأمثال هؤلاء ، وذلك لقلة علمه ووعيه من جهة ، ومن جهة أخرى لأن أهل الباطل وجنود الضلال وأبالسة الإنس ، غالباً ما يجندون كل طاقاتهم وإمكانياتهم في أمثال هذه المواجهات ، من أجل أن يكسبوا بعض الجولات في الصراع مع الحق وتحديه. وكم شهدنا وللأسف العديد من القضايا التي فشل فيها الحق مؤقتاً وهزم أمام الباطل ، مع أن الحق بينٌ والباطل بين ، ولكن محامي الدفاع عن الحق هو الذي ألحق الهزيمة بموكله وأوصل النصر إلى خصمه.

٢-وليس من النادر أيضاً أن يُستغل بعض الدعاة للإسلام بسبب قلة الوعي وضعف البصيرة ، وقد فعل ذلك المبطلون بوجوههم العديدة والمتنوعة وإن كانوا يلبسون أحياناً أقنعة مختلفة تُظهر الإسلام وتبطن الضلال.

يقول الأستاذ الحبيب عصام العطار في « من بقايا الأيام » [ج٢ ص١٤٥] :

« لقد رأينا بأعيننا خلال عشرات السنين من عملنا وتجاربنا على مختلف المستويات ، كيف يُوضع الإسلام ورصيده العقيدي والعاطفي في النفوس ، في خدمة عقائد ومذاهب أخرى ، وخدمة عناصر وأحزاب ومجتمعات وقوى محلية ودولية تخالف الإسلام أو تحاربه ، من قبل عناصر لها عنوان الإسلام ، ولكنها جهلت دينها ، أو آثرت دنياها ، فانحرفت عن طريق الإسلام المستقل المتميز ، وباعت ما استطاعت من رصيده الغالي لأعدائه ومستغليه بما طمعت فيه أو نالته من عرض الدنيا الزائل

وكم رأينا على امتداد هذه السنين من ناس وضعوا أنفسهم في خدمة رجال المال والأعمال باسم الإسلام ، وخدمة الإقطاعيين الظالمين المستغلين باسم الإسلام ، وخدمة سياسيين علمانيين انتهازيين باسم الإسلام ، وخدمة أنظمة فاسدة ، ودكتاتوريات طاغية ، وسياسات منحرفة ، وخدمة شرقٍ أو غرب ، وحكومات مرتبطة بالشرق والغرب باسم الإسلام. وباسم الإسلام ووراء قناعه وستاره يعمل بعض أعدائه الماكرين للعلمانية أو يروجون لليبرالية أو الماركسية ، أو يفرغونه من محتواه الحقيقي ليلبسوه بعد ذلك ما يشاؤون من مضمون. ولقد ضلل هؤلاء وأمثالهم - على تباين بواعثهم وأغراضهم ووسائلهم ومجالاتهم - كثيراً من المسلمين وساقوهم على غير طريقهم إلى غير أهدافهم ومصالحهم الحقيقية ، بل ساقوهم ومايزالون يسوقونهم إلى الخسارة والضياع والهلاك »

نعم ، يجب على الداعية أن يعلم ويعمل بما تعلم ، ولا بد أن يعي ويدرك ما يدور حوله ، وأن يتابع المستجدات والمتغيرات في عالمه ومحيطه ، وأن يدرك تمام الإدراك أنه بغير الوعي والبصيرة قد تتوجه الأعمال الصحيحة والنيات المخلصة غير الوجهة السليمة والمطلوبة ، بل وقد تؤدي إلى نتائج سلبية عكسية.

إننا بحاجة إلى دعاة ، لا يأخذون الأمور على علاتها ، بل يبحثون في ظواهرها ومسبباتها ، ولايبقون على سطح الأحداث بل يغوصون في اللجج والأعماق ، ولا يأخذون بالهوامش بل يسبرون الأغوار ، ولا يكتفون بكتب الماضي وعلومه ، بل يعايشون متغيرات الحاضر ، ويستشرفون توقعات المستقبل ، ويضعون الخطط والمناهج المرحلية القريبة والبعيدة.

إننا بحاجة إلى أهل العلم والاختصاص ، إلى من يفهم الواقع ويتفاعل معه ، ويضع من علمه وإمكانياته ما يمكنه من تغيير هذا الواقع لما فيه مصلحة الإسلام والإنسان. وكفانا كفانا ما ابتلينا به حتى يومنا هذا وللأسف من الخطب الرنانة المشحونة بالانفعالات ، والتي تثير العواطف والمشاعر ولا

تحرك الطاقات والإمكانيات.

وكفانا كفانا من الممارسات السطحية ، والشعارات الفارغة والاندفاعات المضطربة ، التي لم تُفد أبداً ، بل عادت علينا وعلى الإسلام بكل ضرر.

وكفانا كفانا من الحناجر التي تتحكم في العقول ، بدلاً من أن تتحكم بها العقول.

وأخيراً همسة ود وحب في أذن كل داعية : يقول الأستاذ الحبيب عصام العطار حفظه الله : « **على الداعية أن يعلم أنه لا يوجد في الدنيا من هو أكبر من أن يتعلم ، أو أصغر من أن يُعلم** ».